﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٦٨﴾ [التّوبة: 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين مـواصـفـات المـنـافـقـين، ومـآلـهـم في اللّعنة وسوء العذاب

لمّا بيّنَ كثيرًا من أحوالِهم اشتدَّ التّشَوّفُ إلى مآلِهم، فجاءتِ الآيةُ الكريمةُ مُبيِّنةً مآلَهم، وأنّهم في الآخرةِ هُمْ والكفّارُ سواءٌ في الخلودِ في جهنّمَ والمقامِ الدّائمِ في العذابِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدَ﴾: "الوَعْدُ يكون في الخير والشّرّ. يقال وَعَدْتُهُ بنفْعٍ وضُرٍّ وَعْداً ومَوْعِداً ومِيعَاداً، والوَعِيدُ في الشّرِّ خاصّةً. يقال منه: أَوْعَدْتُهُ"[1]، "قال الفرّاءُ: إذا أَسْقَطُوا (المفعول وهو)[2] الخيرَ والشَرَّ قالوا في الخَيْر: المَوْعِد والعِدَة، وقالوا في الشرّ: الوَعِيدُ والإيعاد"[3].

2) ﴿حَسۡبُهُمۡۚ﴾: "حسبُ: في أَسماءِ اللّه تعالى الحَسِيبُ: هُوَ الكَافِي، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِل، مِن أَحْسَبَنِي الشّيءُ إِذَا كَفاني... وحَسْبُه، أَي: قَدْرُه، وَكَقَوْلِكَ: عَلَى حَسَبِ مَا أَسْدَيْتَ إِلَيَّ يكون شُكْري لَكَ. تَقُولُ أَشْكُرُكَ عَلَى حَسَبِ بَلَائِكَ عِنْدي، أَي عَلَى قَدْر ذَلِكَ. وحَسْبُ – مَجْزُومٌ، أي: ساكن الوسط – بِمَعْنَى كَفَى؛ قَالَ سِيبَوَيْهِ: وأَمَّا حَسْبُ، فَمَعْنَاهَا الاكْتِفاءُ. وحَسْبُكَ دِرْهمٌ أَي كَفاكَ، وَهُوَ اسْمٌ"[4].

3) ﴿مُّقِيمٌ﴾: أي دائمٌ ثابتٌ، يقال: "قَامَ كذا، وثبتَ، وركزَ بمعنًى. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125]... والإقَامَةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(2) هذه الزيادة كما في كتاب: مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 16/32.
(3) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (وعد) ولم يوقف على ما عُزي إلى الفراء في كتابه معاني القرآن.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).

في المكان: الثّباتُ، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عنِ الدّوامِ، نحوَ: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: 39]، وقُرِئَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ أَمِينٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الدخان: 48][1]، أي: في مكانٍ تدومُ إقامتُهم فيه... والمُقَامةُ: الإقامةُ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: 35] نحو: ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصّلت: 28]"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافقون جزاؤهم الخُلودُ في العذاب الهون، في الدّرك الأسفل من النّار

"حملتْ هذه الآيةُ أشدَّ وعيدٍ لأهلِ النّفاقِ والكُفرِ؛ إذ توعَّدهمُ الربُّ تعالى بنارِ جهنَّمَ خالدين فيها، وبالعذابِ المُقيمِ، الذي لا يُبارِحُهم، ولا يتركُهم لحظةً أبدَ الأبَدِ، وذلك بعْدَ أن لعَنَهمُ اللّه تعالى، فأبعَدَهم، وأسْحقَهم من كلِّ رحْمةٍ وخيْرٍ، وفي ذلك ما يَعمُرُ النّفوسَ بُغْضًا للنّفاقِ والمنافقين، وما يَحملُ النّاسَ على الخوفِ منه، والحذَرِ منهم، وما هو كفيلٌ بتَثْبيتِ الفزَعِ والفرَقِ في نفوسِ المنافقين من هذا الوعيدِ الشّديدِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاسْتِئنافِ في: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾:

تَمَسُّكُ المنافقين بِنفاقِهم، مع العلْمِ بِعُقوبتِه، يَستحقُّ الوَعْدَ بها

"هَذِهِ الجُمْلَةُ... اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ... ومُبَيِّنَةٌ لجملةِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ الخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ وَاللَّعْنَ بَيَانٌ لِلْمُرَادِ مِنْ نِسْيَانِ اللّه إِيَّاهُمْ"[3].

"وَالوَعْدُ أَعَمُّ مِنَ الوَعِيدِ، فَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الإِخْبَارِ بِالتِزَامِ المُخْبِرِ لِلْمُخْبَرِ بِشَيْءٍ فِي المُسْتَقْبَلِ نَافِعٍ أَوْ ضَارٍّ... وَالوَعِيدُ خَاصٌّ بِالضَّارِّ"[4]، وآثرَ النّظمُ الكريمُ الوعْدَ مع تمحُّضِ السّياقِ للشّرِّ فكان بالوعيدِ أَوْلى - لاستعمالِ الوعْدِ هنا في التّهكُّمِ الذي اقتضاه رِضاهُم

(1) ابن الجزري، النشر: 2/371، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وبحسب العد المدني.
(2) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/255.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/255.

بالنّفاقِ والكُفرِ، وكأنّهم ينتظرون الشّرَّ مكافأةً، فكافأَهُمُ اللّه تعالى به وحقّقَه لهم، بذلك المصيرِ الأليمِ مصيرِ النّفاقِ الذّميمِ.

التّعبيرُ بالماضي ﴿وَعَدَ﴾، في سيّاق الآية الكريمة:

آجـلُ عـذابِ المـنـافـقـين الحُرْقةُ، وعاجلُ عذابِهم الإبعادُ والفُرقةُ

التّعبيرُ بالماضي يُرَسِّخُ في النّفسِ ثُبوتَ الحُكْمِ على المنافقين بالخلودِ في العذابِ؛ فصيغةُ المُضيّ تقولُ بتحقُّقِ الوقوعِ، وإلى ذلك إذا كان الفعْلُ صادرًا عنِ اللّه تعالى فسيزدادُ القطْعُ بالحُكْمِ قطعًا؛ ممّا يَقرّرُ أنّه تعالى "وعدَهمُ النّارَ في الآخرةِ، ولهمُ العذابُ المقيمُ في الحاضرةِ، فمؤجّلُ عذابِهم الحُرْقةُ، ومُعجّلُه الإبعادُ والفُرقةُ"[1].

ووعيدُ اللّه تعالى لا يَتخلّفُ، قال ابنُ عاشورٍ: "وفعْلُ المُضيّ هنا: إمّا للإخبار عن وعيدٍ تقدّمَ وعَدَه اللّه المنافقين والمنافقات تذكيرًا به لزيادة تحقيقِه وإمّا لصَوْغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنْشأُ بها العقودُ مثل (بعت ووهبت) إشعارًا بأنّه وعيدٌ لا يتخلّفُ مثلُ العَقْدِ والالتزامِ"[2].

بَلاغةُ الإظْهارِ، في مقامِ الإضْمارِ:

المُجتمعُ اليَقِظُ الواعِي، يَعرفُ المـنـافـقـين فيَحذرُهم

أظهرَ في مَقَامِ الإضْمَارِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾؛ مع سبْقِ الحديثِ عنهم طويلا؛ "لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِهِمْ فِي الذِّهْنِ لِهَذَا الحُكْمِ، وَلِتَكُونَ الجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً حَتَّى تكونَ كالمثَلِ"[3]، وعن "ابن عبّاسٍ: كان المنافقون بالمدينةِ منَ الرّجالِ ثلاثمائة، ومنَ النّساء سبعين ومائةَ امرأة"[4]، أي: أنّهم كانوا معلومين لدَى المؤمنين بنفاقِهم مُعيَّنةً أفرادُهم؛ وذلك من سُوءِ النِّذارةِ لهم بمكانٍ.. ونسألُ اللّه تعالى العظيمَ صدْقَ الإيمان، وسَتْرَ الآثام، وفلاحَ الحالِ والمآلِ.

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/255.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.

سِرُّ زيادةِ ﴿وَٱلۡكُفَّارَ﴾:

الكُفّارُ والمنافقون في سُـــوءِ العاقبةِ سَواءٌ، والمنافقون همُ الأسْوأُ

و"زِيَادَةُ ذِكْرِ ﴿وَٱلۡكُفَّارَ﴾ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا بِأَهْوَنَ حَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ قَدْ جَمَعَ الْكُفْرُ الفَرِيقَيْنِ"(1)، ويُفهَمُ من هذا التّرتيبِ أنَّ المنافقين أعْرقُ في الكيدِ للإسلامِ وأهلِه؛ إذِ الكافرُ يُواجِهُ فيُفطَنُ له ويُحذَرُ، وقد يكونُ الكافرُ عقيدةً فيما بينه وبين ربِّه تعالى مُسالمًا للمسلمين، أمّا المنافقُ فظاهرُهُ سَلامٌ، وباطنُه تدبيرٌ كائدٌ.

وتلتقي مع هذا التّرتيبِ آيةُ سورةِ النّساء: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140]. وكان مُقتضَى تقديمِ الكُفرِ بالآيات ﴿يُكۡفَرُ بِهَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ على الاستهزاءِ – الذي هو من صفاتِ المنافقين ﴿وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾ – كان مقتضَى هذا التّرتيبِ أن يُقدَّمَ الكافرون في العقوبةِ على المنافقين، لكنَّ النّظْمَ الكريمَ قدَّمَ المنافقين وبهم بدأ فقال: ﴿جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لكوْنِهم أعظمَ كُفرًا، وأخبَثَ عقيدةً، وهذا يتناسَبُ بوضوحٍ مع الزّجِّ بالمنافقين في الدّركاتِ السُّفلَى تحت الكافرين ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء: 145]، والعياذُ باللّه تعالى من مصيرِهم جميعًا.

وَجْهُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ مُضافًا:

عـذابُ المنافقين مُتكاثفٌ خطيرٌ، لا يُطاقُ ولايفتر

"هذا هو الجزاءُ الذي أعدّه اللّه لأهْلِ النّفاقِ والكُفرِ، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾"(2)، وأضاف ﴿نَارَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ وإن كانت إحداهُما لَكافيةً؛ لكونِه العذابَ المتكاثفَ المُتراكبَ، الذي لا يُطاقُ؛ ولأنّه لا يقومُ له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/838.

شيءٌ يَجعلُ الله تعالى أجسامَ أهلِ النّار عظيمةً، كما جاءت به السّنةُ الشّريفةُ؛ إذ يقولُ الرّسول ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَعْظُمُونَ فِي النَّارِ حَتَّى يَصِيرَ أَحَدُهُمْ مَسِيرَةَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ ضِرْسَ أَحَدِهِمْ لَمِثْلُ أُحُدٍ»[1]، وعن ابن مسعود: «لَا يَكُونُ رَجُلٌ يَكْنِزُ فَيَمَسُّ دِرْهَمٌ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارٌ دِينَارًا، يُوَسَّعُ جِلْدُهُ حَتَّى يُوضَعَ كُلُّ دِينَارٍ وَدِرْهَمٍ عَلَى حِدَتِهِ»[2]. وهذا الخبرُ ممّا لا يُجتهدُ فيه؛ فلا بُدَّ من أنْ يكون له أصلٌ في الدّين استنْبطَه منه ابنُ مسعودٍ، وتعظيمُ جسْمِ الكافر لازمٌ توسيعَ جِلْدِهِ في نار جهنّمَ، وإنّ جلْدَه لَيُوسَّعُ حتى لَتُرَصَّ الدّراهمُ صغيرةُ القيمةِ لتكثُرَ - لا الدّنانيرُ عظيمةُ القيمةِ فتقلَّ - على جلْدِه بحيث يكونُ بينها مسافاتٌ - كنايةً عن عِظَمِ جسْمِه، وضخامةِ بنيته، فهنالك فقط يتهيّأُ حطبًا لـ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، والعِياذُ بالله من حالِ أهْلِ النّارِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالحالِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾:

الخلودُ في النّارِ، مَصيرُ المنافقين والكُفّارِ، وبئس القرار

صِيغةُ اسْمِ الفاعل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تشتملُ على سببيّةِ المنافقين أنفُسِهم في خلودِهم في النّارِ، وأنّهم لا يكونون مُخلَّدين بفَرْضٍ يُفرضُ عليهم كما يزعُمُ بعضُ النّاسِ، وإنّما يكونون خالدين بفعْلِهم هم، وكأنَّ الخلودَ صارَ رغبةً منهم واختيارًا لهم، وذلك يتَّسقُ مع نصوصِ الشّرعِ المُتكاثرةِ على أنَّ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: 15]، و﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: 46].

وَجْهُ التّعبيرِ بحرفِ الظّرفيّةِ (في):

نارُ جهنّمَ، ستكونُ لأهلها وِعاءً عَميقًا، لا يُمكنُهمُ الخروجُ منه

التّعبيرُ بحرف الظّرفيّةِ (في) صريحٌ في أنّ النّارَ تصيرُ بِجبالِها،

(1) ابن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، كِتَابُ ذِكْرِ النَّارِ، مَا ذُكِرَ فِيمَا أُعِدَّ لِأَهْلِ النَّارِ وَشِدَّتِهِ، الحديث رقم: (34153): 7/53، وإسناده ضعيف، لضعف أبي يحيى الطويل، وأبي يحيى القتات.

(2) الهيثميّ، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، كتاب الزكاة، بَابُ فَرْضِ الزَّكَاةِ، الحديث رقم: (4349): 3/65، من حديث ابن مسعود، موقوفا عليه. قال الهيثميّ: "رواه الطبَرانيّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ". وأما مرفوعا فلا يصحّ.

وأوْدِيتِها ومجاهِلِها وظُلَمَتِها وِعاءً عميقَ القاعِ للمنافقين والمنافقات خصوصًا والكُفّارِ عُمومًا، بحيث تَسقطُ فيها أصنافُهم ولا يُمكنُهمُ الخروجُ منها أبدًا.

سِرُّ إيثارِ لفْظِ ﴿حَسْبُهُمْ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكُـفّـارِ، لا يزولُ عنهم، ولا يَنفكُّونَ عنه

"جُملةُ ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ في محلِّ نصْبِ حالٍ من نار جهنّمَ"[1]، وفي إيثارِ النّظْمِ الكريمِ مُفردةَ (حَسْب) إشارةٌ إلى "أَنَّهَا مُلَازِمَةٌ لَهُمْ. وَأَصْلُ حَسْبُ أَنَّهُ بِمَعْنَى الكَافِي، وَلَمَّا كَانَ الكَافِي يُلَازِمُهُ المُكَفِّي كُنِّيَ بِهِ هُنَا عَنِ المُلَازَمَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَسْبُ عَلَى أَصْلِهِ، وَيَكُونُ ذِكْرُهُ فِي هَذَا المَقَامِ تَهَكُّمًا بِهِمْ، كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا النَّعِيمَ، فَقِيلَ: حَسْبُهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ"[2]. ففي كلمةِ ﴿حَسْبُهُمْ﴾ "دلالةٌ على عِظَمِ عذابِها، وأنّه لا شيءَ أبلغَ منه، وأنّه بحيث لا يُزادُ عليه"[3].

بَلاغةُ الاستِعارةِ التَّهكُّميّةِ في ﴿حَسْبُهُمْ﴾:

المُـنَـافِـقُـونَ وَالكُـفَّـارُ، مَحَلُّ سُخْرِيةٍ وَتَهَكُّمٍ يَوْمَ القِيَامَةِ

"﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كلُّ ما لهم عندَ الله تعالى"[4]، و"كأنْ يكونَ هناك إنسانٌ شرِّيرٌ وأنت تريدُ أن تؤدِّبَه، فيأتي إنسانٌ قويٌّ ويقولُ لك: اتركْه لي، أنا وحدي كفيلٌ أن أؤدّبَه. فتقولُ: هذا حسْبُه، أي يكفيه هذا؛ لِيتمَّ التأديبُ المطلوبُ. كذلك النّارُ"[5]، فـ "لو تمنّى أحدٌ لهم عذابًا لكان ذلك عندَه حسْبًا لهم"[6] وفي ذلك تهكُّمٌ بهم، وإزراءٌ عليهم، ممّا يتوافقُ مع قولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: 34 - 36]. وهذا يَشفي صدورَ المؤمنين فوْقَ كونِه يَغْلِي في قلوبِ المنافقين؛ لِفظاعةِ ما عانَوْه منهم، و"إذا قيلَ للمعذّبِ:

(1) صافي محمود، الجدول في إعراب القرآن: 10/385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/287.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/838.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5272.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.

كفَى، دلَّ على أنّه بلغَ غايةَ النِّكايةِ"[1]، فهذه النّارُ "كافيةٌ لإهانَتِهم وإذلالِهم بسببِ فُسوقِهم عن أمْرِ ربّهم"[2].

سِرُّ عطْفِ جُملةِ ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

معنَى "﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبْعدَهُم من رحمتِه وأهانَهم"[3]، و"طردَهم من طاعته، فلا يَقبلُ لهم توبةً ولا عودةً؛ لأنّ مكانَ التّوبة هو الدّنيا، وأمّا بعدَ الموت والآخرةِ فلا محلَّ فيهما لتوبةٍ ولا رجوعٍ عن معصيةٍ"[4]، و"لا فرَجَ لهم"[5]؛ منَ العذابِ و"التَّحْقِيرِ وَالغَضَبِ"[6]، و"الذَّمّ"[7]، وهذه الجملةُ "بيانٌ لبعض ما تضمّنَه الخلودُ في النّارِ، فإنّ النّارَ المخلَّدَ فيها مع كوْنِها كافيةً في الإيلام - تتضمَّنُ شدائدَ أُخَرَ منَ اللّعنِ والإهانةِ وغيرِهما"[8]، فقد "جعلَهم مذمومين، مُلحَقين بالشّياطين المَلاعين"[9].

للمنافقين عذابان حِسّيٌّ في النّار، ومَعنويٌّ بالـيأْسِ منَ الفرار

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾:

"فِعْلُ المُضِيِّ هُنَا إمَّا لِلْإِخْبَارِ عَنْ وَعِيدٍ تَقَدَّمَ وَعَدَهُ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ تَذْكِيرًا بِهِ لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِهِ، وَإِمَّا لِصَوْغِ الوَعِيدِ فِي الصِّيغَةِ الَّتِي تَنْشَأُ بِهَا العُقُودُ مِثْلَ (بِعْتُ وَوَهَبْتُ) إِشْعَارًا بِأَنَّهُ وَعِيدٌ لَا يَتَخَلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ وَالِالتِزَامِ"[10].

لعْنُ الله تعالى المُنافقين والكافرين، مَقطوعٌ به لا مَحالةَ

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾، مُسنَدًا إليه:

لم يبنِ النّظْمُ الكريمُ فعْلَ اللّعنةِ للمفعول كما في قولِه تعالى - مثلًا -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى

إيقاعُ اللّعْنِ منَ الله تعالى، يَقطعُ بعذابِ الملعونين الشّديدِ الدّائمِ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/341.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/344.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 9/5272.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/521.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/98.
(8) حقّي، روح البيان: 3/461.
(9) النّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التأويل: 1/692.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/255.

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النّور: 23]؛ لكوْنِ إسْنادِ اللّعْنِ إلى اللّه تعالى مباشرةً يُقرّرُ ضَياعَهم، ودوامَ العذابِ عليهم، ففيه مِن عِظَمِ التَّخويفِ والزَّجْرِ ما شأنُه أنْ يَرُدَّ عنِ النّفاق في الدّنيا؛ لأنّ الذي يَلعنُهم هو اللّه تعالى. فـ "في إظْهارِ الاسْمِ الجليلِ منَ الإيذانِ بشدّةِ السُّخطِ ما لا يَخفَى"[1].

تَوجِيهُ الختْمِ بالعذاب المقيم:

عـذابُ المنافقين لا يَـنـقـطـعُ، جَزعٌ في الدّنيا، وجـحـيـمٌ في الآخرةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾، لفظ الـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ هو الـ "مؤبّدُ الذي لا نقلةَ له"[2]، و"لا ينقطعُ"[3]. وخُتِمتْ جملةُ العقوبات بوصْفِ العذاب بالـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ تيْئيسًا للمنافقِ منَ الخلاص منه، مهما طالتْ عليه الأحقابُ والتَّغييبُ هنالك في مجاهلِ أوْديةِ الجحيم إلى غيرِ نهايةٍ، ممّا يُكبِّدُه المعاناةَ النّفسيّةَ هنا قبْلَ أن يَرحلَ إلى ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾.. ثمّ إنّ للمنافقِ من وراء جهنّمَ وعذابِها لعْنةَ اللّه القائمةَ عليهم، وعذابًا مقيمًا لا يُفتَّرُ عنهم، وهم فيه مُبلسون[4]. "وَالعَذَابُ المُقِيمُ: إنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ عَذَابَ جَهَنَّمَ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ لِدَفْعِ احْتِمَالِ إطْلَاقِ الخُلُودِ عَلَى طُولِ المُدَّةِ، وَتَأْكِيدٌ لِلْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾، وَإنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ عَذَابًا آخَرَ تَعَيَّنَ أنَّهُ عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا وَهو عَذَابُ الخِزْيِ وَالمَذَلَّةِ بَيْنَ النَّاسِ"[5].

عِلّةُ تَقديمِ المُسنَدِ ﴿وَلَهُمۡ﴾، على المُسنَدِ إليه ﴿عَذَابٞ﴾:

الـعـذابُ المقيمُ مُقرَّرٌ للمنافقين والـكُـفّـارِ، ولا مندوحة عنه ولا فرار

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٞ﴾ يُفيدُ القصْرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ؛ لأنّه لا يَخْلُدُ في النّارِ إلّا المنافقون والمنافقات والكفار، وأنَّ ذلك لا يتجاوَزُهم إلى غيرهم من عُصاةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(3) القاسميّ، محاسن التأويل: 5/451.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/839.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.

الموحِّدين، الذين قد يُغمسُ بعضُهم في العذابِ للتَّطهيرِ لا للتَّخليدِ، وأدلَّةُ الشّرعِ تواترتْ بهذا الحُكمِ، كما في الحديثِ الشّريفِ الذي يرويه أبو هريرة ﷺ عنِ الرّسول ﷺ: «فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، **فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَاةِ**، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[1].

نُكتةُ تَنكيرِ المُسنَدِ إليه ﴿عَذَابٌ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكـافـريـن، مَـنْـكـورٌ نَـكـارةَ نِفاقِهم وكُفْرِهم

يُفيدُ تنكيرُ لفْظِ ﴿عَذَابٌ﴾ تهويلَ شأْنِ العذابِ، وخُطورةَ النّارِ التي سيخلُد فيها المنافقون والمنافقاتُ والكافرون، وأنّها نارٌ مُستفْظَعَةٌ منكورةٌ، لا عهْدَ لهم بها، ولا قِبَلَ لهم بها؛ فتنكيرُه ناسبَ نَكارةَ نفاقِهم وكُفرِهم من جهةٍ، كما ناسبَ جهْلَهم بِكُنْهِه وفظاعَتِه منَ الجهةِ الأُخرَى.

سِرُّ وصْفِ الـ ﴿عَذَابٌ﴾ بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾:

عـذابُ المنافقين مُـقـيـمٌ عليهم فـمُـعـجَّـلٌ في الدّنيا، ومُؤجَّلٌ في الآخرةِ

وصْفُ العذابِ هنا بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ يَقتضِيه السّياقُ اقتضاءً واضحًا؛ إذ إنّ نِفاقَهم مُترسّخٌ فيهم، متمكِّنٌ منهم، ملازِمٌ لهم. وهو في حدِّ ذاته ﴿عَذَابٌ﴾ "مقيم معهم في الدّنيا، لا يَنفكُّ عنهم، وهو ما يقاسُونَه من تعبِ النِّفاقِ الذي هم منه في بَلِيَّةٍ دائمةٍ، لا يأمَنون ساعةً من خوفِ الفضيحةِ ونُزولِ العذابِ إنِ اطَّلعَ عن أسرارِهم"[2] أحدٌ، وبخاصّةٍ من له سُلطانٌ عليهم مثلُ الرّسولِ ﷺ.

وقد ذُكرَ وصْفُ ﴿مُّقِيمٌ﴾ بعد الحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ "تأكيدًا له؛ لأنَّ الخلودَ والدّوامَ بمعنًى واحدٍ"[3]، فلا تَكْرارَ؛ ولأنَّ المقصودَ "أَنَّ لَهُمْ نَوْعًا آخَرَ مِنَ العَذَابِ المُقِيمِ الدَّائِمِ سِوَى العَذَابِ بِالنَّارِ وَالخُلُودِ المَذْكُورِ أَوَّلًا، وَلَا يَدُلُّ قوله: لهم نار جهنم عَلَى أَنَّ العَذَابَ بِالنَّارِ

(1) البخاري، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (6560).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(3) حقّي، اسماعيل، روح البيان: 3/461.

دَائِمٌ. أما قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ نَوْعًا آخَرَ مِنَ العَذَابِ... أو أن العذاب المقيم هو العَذَابُ العَاجِلُ، الَّذِي لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهُ. وَهُوَ مَا يُقَاسُونَهُ مِنْ تَعَبِ النِّفَاقِ، وَالخَوْفِ مِن اطِّلَاعِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ، وَمَا يَحْذَرُونَهُ أَبَدًا مِنْ أَنْوَاعِ الفَضَائِحِ"[1]، و"ما هم مقهورون به من سطْوةِ الإسلامِ وجنودِه الكرامِ الأعلامِ، وفي الآخرة بما لا يعلَمُه حقَّ علْمِه إلّا اللّه تعالى"[2].

الغَرَضُ منَ المجازِ العقليِّ ﴿مُّقِيمٌ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكـافـريـن مُتعشِّقٌ لهم، مُتشَبِّثٌ بهم

العذابُ لا يُقيمُ ولا يَدومُ من تلقائِه على المنافقين، وإنّما يُقيمُه اللّه تعالى عليهم؛ غيرَ أنّ إسْنادَ الإقامةِ إلى العذابِ يُعطِي إيحَاءَ أنّ العذابَ نفسَه مُغْتاظٌ منهم؛ فهو مُتشبِّثٌ بهم، لا يريدُ تركَهم هانئين لحظةً بدونِ تألُّمٍ ومعاناةٍ، والعياذُ باللّه تعالى من حالِ أهلِ النّارِ. والمجازُ في وصْفِ العذابِ بـ ﴿مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ "عقليٌّ... فهي كما في قولِه تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: 21] والمجازُ هنا في وصْفِ العذابِ بالإقامةِ"[3] "فهم في الدّنيا يَعيشون في عذابِ القلَقِ والحذَرِ من أن يطَّلِعَ المُسلمون على نفاقِهم، وفي الآخرةِ يَذوقُون العذابَ الذي هو أشدُّ وأبْقَى، بسببِ إصْرارِهم على الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ"[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/98.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/521.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/385.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/344.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»